المكتبات عبر العصور

إن بداية المكتبات غير معروفة على وجه التحديد، وكل ما يمكن قوله هو أنها ظهرت لأول مرة في الشرق الأدنى. وقديما كانت محتويات المكتبة مزيجا بين الوثائق الحكومية والمؤلفات الدينية والمواد الكتابية المتعلقة بالنشاطات الموجودة كالتجارة الداخلية والخارجية و ما يتبعها من إدارة للأعمال. وقد كانت المعابد التي عملت على حفظ الأدب الديني الذي زاد غزارة مع الوقت أقدم أشكال المكتبات في مصر و بلاد الرافدين وبلاد اليونان

1/ المكتبات في بلاد الرافدين: منذ الألف الرابعة ق.م. سكن السومريون جنوب بلاد الرافدين، أما القسم الأعلى منه فسكنه الأكاديون، وقد وحد سرجون الأكادي البلاد، ونتج عن هذا التفاعل الحضارة البابلية التي بلغت ذروتها زمن حمورابي(حوالي1600ق.م.). كما أسس الآشوريون إمبراطورية كبرى شمال البلاد وأسسوا مكتبات ضخمة بين 850 و650 ق.م. حيث كانت مصنفة حسب المواضيع ووضعت لها فهارس بدائية. وطور آشور بانيبال المكتبة التي أسسها جده سرجون الثاني حتى أصبحت من أعظم المكتبات في العالم القديم، حيث احتوت على 30 ألف لوحة فخارية، وكانت مفتوحة للباحثين ومجهزة بالنساخ والمترجمين من اللغات الأجنبية إلى الآشورية.

وقد وصل تطور المكتبات في بلاد الرافدين أن وجد من يعملون بها، وقسموا حسب العمل، إما في المعابد أو القصور حسب الثقافة والخبرة والتحكم في اللغات، وفي بعض الأحيان كان الكاهن هو الخازن لمكتبة المعبد، وكان دوره الجمع والحفظ والترتيب واستبدال الألواح الطينية المكسورة بأخرى جديدة، وإرسال النساخ إلى أماكن بعيدة لنسخ ألواح جديدة تضاف لرصيد المكتبة كما هو الحال اليوم في المكتبات. و كان المكتبي الذي يختار للعمل في القصور من المثقفين والمؤلفين البارزين على أن يكون على دراية بالأنساب وتراث الأجداد و أن يعمل على تصنيف محتويات المكتبة، مع إشراف مباشر من الملك على أعماله في بعض الأحيان.

2/ المكتبات في مصر القديمة: كما هو الحال في بلاد الرافدين ظهر الاهتمام بالمكتبات في مصر القديمة، حيث خصصت في المعابد والقصور غرف لحفظ السجلات والمحفوظات الرسمية، ثم أضيفت فيما بعد مواد أخرى كالتاريخ والأدب والقصص الديني. وكان يشرف على هذه المكتبات أشخاص متمرسون، حيث اعتبرت هذه المهنة عملا مقدسا. ومن أشهر المكتبات في مصر القديمة مكتبة الفرعون أخناتون الذي حكم في حدود 1350 ق.م.، حيث وجدت فيها لوحات فخارية هي عبارة عن رسائل دبلوماسية بين الداخل والخارج، كما نجد أيضا مكتبة معهد طيبة وهي من بين المكتبات المشهورة في وادي النيل لموقعها في مركز الدولة المصرية الوسطى، وقد أسسها رمسيس الثاني في القرن 13 ق.م. و تحديدا في 1200ق.م. وسماها "مخزن طب العقول"، وقد جمع فيها النصوص المكتوبة بالهيروغليفية على لفائف البردي ذات المواضيع الدينية والفكرية والاجتماعية حسب متطلبات الحياة الفرعونية من عبادة ودين لخدمة رجال الدين والملوك. ورتبت اللفائف في جرار طينية ثم وضعت على رفوف خشبية أو طينية أو حجرية حسب المواضيع في المكتبة الملحقة بالمعبد

أو القصر، و كان يعمل بالمكتبة مشرف ومجموعة من النساخ والكتاب، وسمي هذا الأخير " مي آمون"، وكان شخصية بارزة في القصر الملكي والمعبد الديني، وبقيت هذه المكتبة حتى القرن 4 ق.م. حيث أحرقت لما دخل الفرس مصر. كما وجدت المكتبات الخاصة وبالخصوص في بيوت التجار والنبلاء والأغنياء.

3/ المكتبات في بلاد اليونان: حظيت المكتبات في بلاد اليونان بمكانة مرموقة، و الدليل أن كلمة مكتبة باللغات الأوروبية مشتقة من أصلها اليوناني و تتألف من كلمتين هما "biblio" وتعني كتاب و "teq" وتعني مستودع، وبالتالي فالتعريف المبسط أنها عبارة عن مستودع للكتب بالمفهوم القديم. وقد اشتهرت تجارة الكتب عند اليونان وخاصة في القرن 5 ق. م. لأن المعلومات التي وصلتنا عن المكتبات في هذه الحضارة ظلت غامضة حتى هاته الفترة، حيث يعتقد أن أفلاطون امتلك مكتبة، أما تلميذه أرسطو فالمعلومات عن مكتبته مؤكدة، وكانت تحتوي على ما يزيد عن بضع مئات من الكتب وكانت متاحة لجميع تلاميذه. كما امتلك بعض المشاهير مكتبات مثل إقليدس و ديموستنيس الخطيب المشهور، ووجدت أيضا مكتبات عامة مفتوحة للجمهور كما هو الحال في بعض جزر بحر إيجه. وقد أسس البطالمة بالإسكندرية بمصر بعد احتلالها من طرف الإسكندر الأكبر وتأسيسه للمدينة مكتبة شهيرة في العالم القديم هي مكتبة الإسكندرية التي ازدهرت و أشرف عليها باحثون مرموقون من أمثال كاليماخوس وأبولونيوس وغيرهما. وقد وضع كاليماخوس فهرسا شاملا لمختلف محتويات المكتبة به اسم المؤلف ولمحة عن حياته وأسماء مؤلفاته، كما قسم الفهرس حسب المواضيـع (خطابة، تاريخ، قوانين، فلسفة، طب، شعر غنائي، المأساة، متفرقات)، وقد احترق البروكيوم الذي يحتوي المتحف أي المكتبة الرئيسية عام 273 م عند احتلال الإمبراطور الروماني أورليان مصر و مدينة الإسكندرية في نفس السنة.

4/ المكتبات في الإمبراطورية الرومانية: يعتبر تاريخ المكتبات في بلاد الرومان امتدادا لتاريخها عند اليونان نظرا لتأثرهم بالحضارة اليونانية، ونتيجة لتوسع الإمبراطورية الرومانية شرقا وغربا و شمالا وجنوبا فقد تأسس تقليد سلب الكتب أثناء الحروب، حيث أحضر القائد"Sulla" الذي احتل أثينا سنة 68 ق.م. مجموعة من الكتب منها مكتبة أرسطو الخاصة، كما شاعت المكتبات الخاصة في روما في حدود 50 ق.م.، أما المكتبات العامة فتأخرت نوعا ما.

5/ المكتبات في الحضارة الصينية: يعود تاريخ التدوين عند الصينيين إلى الألف الثالثة قبل الميلاد، حيث شمل الأحداث والوقائع المختلفة سواء الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية. وقد تميزت الحضارة الصينية بظهور صناعة الألواح المحفورة للكتابة من خلال الحروف المفككة التي كانت لها قوالبها المعدنية والخشبية، إضافة إلى الورق الذي كان أقل تكلفة من الحرير الغالي الثمن، حيث كان يصنع من لحاء الشجر والخرق البالية وشباك السمك. ويعود هذا الاختراع إلى " تساي لون " الذي قلده الإمبراطور منصبا يليق به جراء هذا العمل. أما ثالث اكتشاف عرف في الصين فهو الحبر الأسود الذي كان يصنع بها والحبر الأحمر الذي يتم الحصول عليه من كبريتور الزئبق. وقد شملت حركة التأليف في الصين الآداب والعلوم والفلسفة والقوانين باللغة الصينية القديمة مع استعمال الألواح الخشبية. وقد كانت المكتبات ملحقة بالقصور الملكية والمعابد والأديرة، وأكثرها شهرة مكتبة كوتزكيل في العاصمة بكين التي يعود تاريخها إلى القرن 12 ق.م. و في القرن 3 ق.م. تعرضت الكتب والمكتبات للحرق

من طرف الإمبراطور " تسن " بسبب هجوم المفكرين والكتاب على سياسة الإمبراطورية. وبعد هذه الفترة عادت الثقافة الصينية إلى وضعها، وظهرت الكتب والمؤلفات في الفلسفة الصينية والآداب والقانون والاقتصاد والطب والتاريخ.

6/ المكتبات في الحضارة الفارسية: في القرن الثالث الميلادي توسعت بلاد الفرس لتشمل أفغانستان و بلوشستان والعراق، واهتم الفرس بالكتابة لتسجيل تاريخهم منذ القدم، كما كان للتعليم شأن كبير، حيث وجدت المدارس الابتدائية في الأديرة والأماكن القديمة وكان الكهنة هم من يتولون عملية التدريس، كما وجدت مدارس كبرى متصلة بالبلاط يتعلم فيها أبناء الأسرة الحاكمة إضافة إلى التعليم العالي في مجال الطب والآداب والفلسفة والعلوم. وفي القرن الخامس الميلادي استقبلت بلاد فارس المفكرين والعلماء اليونانيين عندما أغلق جستنيان اليوناني مدارس أثينا، حيث توجه سبعة من أساتذتها إلى فارس ووجدوا في بلاط كسرى أنوشروان كل الترحاب. وأمر الملك كسرى بترجمة كتب أفلاطون وأرسطو إلى الفارسية. وفي هذه الأجواء العلمية المزدهرة انتشرت المكتبات الخاصة للحكام والعلماء والفلاسفة واحتوت على المؤلفات القيمة، كما انتشرت أيضا المكتبات العامة خاصة في المدن الرئيسية كأصفهان و تبريز وغيرها.

7/ المكتبات في أوروبا حتى العصور الحديثة: بعد سقوط روما على يد البرابرة الجرمان سنة 476م تحطمت المؤسسات التي كانت سائدة من قبل وبدأت الكنيسة تسيطر على الحياة في أوروبا واحتكرت لنفسها النواحي العقلية، فساد الجهل وانحصر التعليم الديني وحده في الكنيسة ورهبانها، ونشأت المكتبات في أوروبا في الأديرة والكنائس، وكانت أغلب كتبها دينية، ولا يسمح بمطالعتها إلا لرجال الدين، كما وجدت أيضا مكتبات خاصة بكل من فرنسا وألمانيا. ونظرا لاحتكاك الأوروبيين بالمسلمين سواء أثناء الحروب الصليبية أو بالأندلس ظهرت بأوروبا الجامعات و الفكر العلمي كما بدأ دخول واستعمال الورق، وبنيت المكتبات وتأسست أول جامعة بها عام 1158م ببولونيا بإيطاليا، وتوالت الجامعات حتى أصبح عددها عام 1300م 16 جامعة، ولكنها لم تكن تملك مكتبات، وكانت العادة أن تنشئ كل كلية مكتبة لنفسها. وأقدم ذكر لوجود مكتبة هو في جامعة باريس ويعود إلى 1250م. وقد انتشرت المكتبات الخاصة أيضا بأوروبا، حيث كان الحكام يهتمون بجمع الكتب، ويليهم الباحثون والعلماء فالبابوات ورجال الدين وأخيرا الإقطاعيون. ومع ظهور بوادر النهضة ازدهرت الحركة العلمية التي رافقت اختراع الطباعة عام 1450م على يد الألماني غوتنبرغ" Gutenberg"، فانتشرت حركة نشر الكتب وازدهرت المكتبات، فظهرت المكتبات الوطنية على غرار المكتبة الوطنية بباريس والمكتبة الوطنية بألمانيا ومكتبة النمسا الوطنية، كما نشأت المكتبات على مستوى الجامعات بفرنسا، وإنجلترا وألمانيا، بالإضافة إلى المكتبات العامة.

8/ المكتبات في الحضارة الإسلامية: نظرا لارتباط الحضارة الإسلامية بالدين الإسلامي الذي حث على العلم، حيث كان أول ما نزل من القرآن الكريم هو كلمة "اقرأ"، فقد اهتم المسلمون منذ احتكاكهم بالعالم الخارجي أثناء الفتوحات بما وجدوه عند الشعوب الأخرى، فاشتهرت الترجمة إلى اللغة العربية وخاصة في العهد العباسي، ونشطت حركة التدوين والتأليف، وكان أول كتاب يجمع في الحضارة الإسلامية هو القرآن الكريم. و في هذه الأجواء كثر الإقبال على الكتب وشرائها، فانتشرت المكتبات العامة في المساجد والمدارس، كما انتشرت المكتبات الخاصة، حتى أن أحد المسافرين أحصى عام 831م أكثر من 1000 مكتبة عامة ببغداد

وحدها. وبدأت كل مدينة تبني دارا للكتب تكون بمثابة مكتبة عامة يستطيع أي شخص استعمالها متى شاء، ومن بين أشهر المكتبات في الحضارة الإسلامية بيت الحكمة ببغداد التي تعد أول مكتبة أكاديمية عامة تنشأ في بلاد الإسلام، حيث أنشأها هارون الرشيد ورعاها ابنه المأمون حتى صارت من أكبر المكتبات في العصر العباسي تحتوي مختلف العلوم والمعارف إلى غاية تدميرها من طرف المغول لما احتلوا بغداد عام 1258م. أما دار الحكمة أو دار العلم، فقد أنشأها الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله في القاهرة وافتتحها عام 395ه بعد أن خصها ببناء ضخم ألحقه بقصره، وكانت تحتوي مختلف العلوم ومفتوحة لجميع الناس و بها عمال يتلقون رواتبهم من الخليفة مع تزويدها بما يحتاجه روادها من أقلام وحبر وغيرها من المستلزمات. و في قرطبة قد أسس الخليفة عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر بمدينته الزهراء مكتبة بلغت شهرة عالمية ازدادت أكثر في عهد ابنه الثاني المستنصر، وقد احتوت على 400ألف مجلد كتبت فهارسها في 44 كراسة بكل واحدة 50 ورقة.